



الاثنين 13 سبتمبر 2021 11:51 م

ينازع الداعية أثناء مسيره فى طريق الدعوة مشاعر مختلفة، قد تصل إلى حد التناقض أحيانا، فمرة يشعر بالقدرة على التغيير وسهولة تأثيره فى الناس، ومرة يشعر بغير ذلك، على درجات متفاوتة، قد تصل أحيانا إلى حد اليقين بأنه لا نتيجة منتظرة من سعيه. وهنا يبرز السؤال: متى يقرر الداعية التوقف؟ ومن يملك مثل هذا القرار؟

ولقد امتدت عناية القرآن والسنة بالدعاة العاملين لهذا الدين، وبالمؤمنين المفتقين آثار الأنبياء والمرسلين، وتجلت رحمة الله الواسعة بهم حين احتوت النصوص المقدسة الإجابة الشافية عن مثل هذه التساؤلات، فقد عرض الله علينا فى القرآن والسنة مختلف النماذج الدعوية، ومختلف النتائج كذلك، ومن بين هذه النماذج الوافرة نرى بوضوح القواعد والضوابط والقيم الحاكمة للعمل الدعوى، ومن خلال نماذج حية واقعية، وليست فى نصوص جامدة ولا توجيهات نظرية.

عرض علينا القرآن والسنة نموذج نوح عليه الصلاة والسلام. يقول تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ تَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦)} (هود) وهذا ملخص للقصة، وقد وردت التفاصيل فى موضع شتى من القرآن الكريم، وفى سورة نوح يقص علينا ربنا صورة من جهود نوح عليه الصلاة والسلام- ونشاطه فى دعوته قومه: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (٣) يَعِزُّ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)}.

وقد تكرر مثل هذا المعنى توضيحا وتوكيدا، {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَغْلَيْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُبَيِّنْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَيِّبَاتٍ (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أُنْتَبِئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ تَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِيَسْأَلُوكَ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)}

وفى كل موضع من ذكر القصة فى القرآن تجد التكذيب الواضح السريع، تجد الإصرار العجيب على الضلال، والتكبر عن اتباع الحق، والعناد والاستهزاء بنوح ومن آمن معه، تجد إرهابهم وسوء أدبهم، تجد حرصهم وجدهم على ما هم فيه، {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)} نوح.

القوم لم يدخروا وسعًا ولم تقصر همهم عن التكذيب والإعراض، {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا تَشْتَرَا بِمِلَّةٍ وَمَا تَرَاكَ إِلَّا اتِّبَاعَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ تَطُّكُم كَادِبِينَ (٢٧)} هود.

ثم يعلن القرآن بجلاء لا مثيل له فى سورة العنكبوت- يعلن ملحمة العمل الدعوى وصمود الدعاة، يعلن معنى الثبات الأسطورى الذى لا مثيل له، الصبر المستحيل لغير الربانيين، الحرص على هداية الناس والأخذ بأيديهم إلى الجنة رغم جهلهم وقساوتهم، رغم استهزائهم وتعنتهم، يعلن القرآن النموذج الربانى للداعية، الداعية الذى لا يرى

امام عينيه إلا الأجر العظيم والثواب الجزيل من رب العالمين، لا يرى إلا قومه الفقراء إلى دعوته، قومه الهالكين إن لم يتحرك نحوهم، الداعية الذي يرى العذاب فوق الرؤوس، فيجتهد ما وسعه الجهد أن ينقذ الناس وبعده بينهم وبينه، لا يوهن عزمه طول الطريق، ولا يؤثر فيه مر السنين نلو السنين {... فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمْسِينَ عَامًا ... (١٤) (العنكبوت) ألف سنة بلا توقف! ألف سنة بلا ضيق ولا شكوى! إنه النبي العظيم.

نعم صدق الله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَيَّتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥)} (العنكبوت) فمتى توقف نوح عن الدعوة؟ ومن قرر ذلك؟ إنه الله وحده.

الله وحده هو الذي قرر وحكم وأنهى المسألة، وأمر نوح أن يتوقف: {وَأَوْجِبِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ} قال السعدى فى تفسيره لهذه الآية: فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال: {قَاضِيٌ لِحُكْمِ رَبِّكَ} أي: لما حكم به شرعاً وقدرًا، فالحكم القدرى، يصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعى، يقابل بالقبول والتسليم، والانقياد التام لأمره. وقوله: {وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ} وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام- أي: ولا تشابهه فى الحال، التى أوصلته، وأوجبت له الانحباس فى بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضبًا لربه، حتى ركب فى البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيهم يلقون لكى تخف بهم، فوقعت القرعة عليه فالتقمه الحوت وهو مليم.

ولقد عرض علينا القرآن ما يؤيد ذلك عن طريق النموذج المخالف، ذلك حينما خاطب القرآن رسولنا العظيم محمدًا صلى الله عليه وسلم: {قَاضِيٌ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ} قال السعدى فى تفسيره لهذه الآية: فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال: {قَاضِيٌ لِحُكْمِ رَبِّكَ} أي: لما حكم به شرعاً وقدرًا، فالحكم القدرى، يصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعى، يقابل بالقبول والتسليم، والانقياد التام لأمره. وقوله: {وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ} وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام- أي: ولا تشابهه فى الحال، التى أوصلته، وأوجبت له الانحباس فى بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضبًا لربه، حتى ركب فى البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيهم يلقون لكى تخف بهم، فوقعت القرعة عليه فالتقمه الحوت وهو مليم.

فقرار التوقف عن الدعوة لا يملكه بشر، إن دعوتنا هى ديننا عبادتنا جهادنا حياتنا أملنا فى الله وعفوه ومغفرته، دعوتنا هى نصرتنا لدين الله، وحين نتوقف عنها، فما أشبهنا بمن قال الله فيه: {وَإِنلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي أَتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَأَتَيْتَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْضِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)} الأعراف